

# مَسَلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ رِوَانَ

فاتح شطر الأنضول ومحاصر القُسْطَنْطِينِيَّة

بفهام اللواتي الركن محمود شيت خطاب

٣ - توطيد الأمن الداخلي

أ - القضاء على حركة شوذب الخارجي :

في سنة مئة الهجرية ( ٧١٨ م ) ، خرج شوذب الخارجي ، وهو بسطام من بني ( يشكر ) ( ١ ) في ( جوخي ) ( ٢ ) ، وكان في ثمانين رجلاً .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله بالكوفة ، ألا يحركهم حتى يسفكوا دماء ويفسدوا في الأرض ، فان فعلوا وجه إليهم رجلاً صلياً حازماً في جند .

وبعث عبد الحميد والي الكوفة محمد بن جرير بن عبدالله البجلي ( ٣ ) في ألفين ، وأمره بما كتب عمر بن عبدالعزيز إليه ، كما كتب عمر إلى بسطام الخارجي ، يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر إلى بسطام وقد قدم عليه محمد ابن جرير ، فقام بأزائه لا يتحرك .

وكان في كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى بسطام : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك مني ، فهل إلى أناظرك ، فان كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك » .

وكتب بسطام إلى عمر : « قد أنصفت ، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

- ( ١ ) هو يشكر بن بكر بن وائل ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب ( ٣٠٨ ) .
- ( ٢ ) جوخي : وردت في معجم البلدان ( ٣ / ١٦١ ) : جوخا : اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد ، ولم تكن ببغداد مثل كورة جوخا .
- ( ٣ ) انظر سيرة والده : جرير بن عبدالله البجلي في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة ( ٣٥٦ - ٣٧١ ) .

ووصل الرّجلان إلى عمر ، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظره (١) .  
ومات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة إحدى ومئة الهجرية (٢) (٧١٩م)  
ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرّض إليهم ولا يتعرّضون إليه ، كل منهم  
ينتظر عودة الرّسل من عند عمر بن عبد العزيز ، فتوفي عمر والأمر على ذلك (٣) .  
وتولّى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهد من أخيه سليمان بعد عمر  
ابن عبد العزيز (٤) ، فأحب عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب  
أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك ، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره  
بمناجزة شوذب .

ولما رأى الخوارج محمداً يستعدّ للحرب ، قالوا : « ما فعل هؤلاء هذا إلا وقد مات  
الرجل الصالح » يريدون عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

ونشب القتال بين الطرفين ، فأصيب من الخوارج نفر ، وقتل الكثير من أهل  
الكوفة وانهزموا ، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة ، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا  
الكوفة ، ثم رجعوا إلى مكانهم .

ووجه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحُبَاب في ألفين ، فحاربه الخوارج وقتلوا  
أصحابه ، ولجأ فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبد الملك هاربين .  
وأرسل يزيد قوّة بقيادة نجدة بن الحَكَم الأزديّ فقتلوه وهزموا أصحابه ،  
فوجه يزيد السجّاح (٥) بن وداع في ألفين ، فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً .

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة ، فشكا إليه أهل  
الكوفة مكان شوذب ، فأرسل إليه مسلمة سعيد بن عمرو الحرّشيّ ، وكان فارساً  
في عشرة آلاف ، وأتاه وهو بمكانه ، فرأى شوذب وأصحابه ما لا قبيل لهم به ،  
فقال لأصحابه : « مَنْ كان يريد الشهادة فقد جاءته ، ومَنْ كان يريد الدنيا فقد

- (١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٥٥ / ٦) وابن الأثير (٤٥ / ٥ - ٤٨) .
- (٢) الطبري (٥٦٥ / ٦) وابن الأثير (٥٨ / ٥) والعبر (١٢٠ / ١) وشذرات الذهب (١١٩ / ١) .
- (٣) ابن الأثير (٤٨ / ٥) .
- (٤) ابن الأثير (٦٧ / ٥) .
- (٥) في الطبري (٥٧٦ / ٦) : السجّاح ، وفي ابن الأثير (٦٩ / ٥) : السجّاح .

ذهبت». وكسر الخوارج أعماد سيوفهم وحملوا ، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً ، حتى خاف: سعيد الفضيحة ، فوبخ أصحابه وقال : «من هذه الشرذمة لا أب لكم تفرون! يا أهل الشام ! يوماً كأيامكم ! » ، وحمل أصحاب سعيد على الخوارج ، فطحنوهم طحناً ، وقتلوا بسطاماً - وهو شوذب - وأصحابه (١) .

وهكذا قضى مسلمة على حركة من حركات الخوارج ، استعصت على الآخرين ، وكان يمكن أن تتطور فتصبح خطراً داهماً يهدد أمن الدولة واستقرارها .

ب . القضاء على فتنة يزيد بن المهلب :

في سنة مئة الهجرية ( ٧١٨ م ) ، كتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة والي البصرة لعمر (٢) ، يأمره بانفاذ يزيد بن المهلب إلى دمشق موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويُقبَل إليه فاستخلف مَخْلداً ابنه وقدم من (خُرَاسان) (٣) ونزل (واسطاً) (٤) ، ثم ركب السفن يريد (البصرة) ، فبعث عدي بن أبي أرطاة موسى ابن الوَجِيه الحَمِيرِي ، فلحقه في نهر (مَعْقِل) (٥) عند الجسر ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبدالعزيز في دمشق .

(١) انظر التفاصيل في الطبري ( ٥٧٥ - ٥٧٨ ) وابن الأثير ( ٦٨ / ٥ - ٧٠ ) .

(٢) جمهرة انساب العرب ( ٢٥٦ ) .

(٣) خراسان : بلاد واسعة يتاخمها العراق من الغرب وافغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد من الشمال إلى أقصى تخوم ايران . من أمهات مدنها : نيسابور وهراة ومرو وبلخ ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري ( ١٤٥ - ١٦٠ ) ومعجم البلدان ( ٤٠٧ / ٣ ) .

(٤) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي ، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٣٧٨ - ٣٨٧ ) ، وقد اطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة .

(٥) نهر معقل : منسوب الى معقل بن يسار المزني ، صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٣٤٥ - ٣٤٦ ) ، وفيه : ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر ابا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب اليه .

ودعا به عمر ، وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أحب مثلهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنه مُراء » ، فلما ولي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء . ولما دعاهم يزيد ، سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : « كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمتُ أن سليمان لم يكن ليأخذني به ! » فقال عمر : « لأجد في أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأد ما قبلك ، فانها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها » .

وحبسه بحصن ( حلب ) ، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحَكَمِيّ فسرحه إلى ( خُرَاسان ) أميراً عليها ، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر ( ١ ) . ولما اشتدّ مرض عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، خاف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك ( ٢ ) ، فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من السجن ، فأعدوا وإبلاً له وخيلاً . وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وبعث إلى عامل ( حلب ) مალأً وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال : « إن أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن ولي يزيد بن عبد الملك يسفك دمي » ، فأخرجوه ، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه ، وركب هناك الدواب وقصد ( البصرة ) . وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز كتاباً يقول فيه : « إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقه به وهضهُ فقد هاضني » ، وكان هروب يزيد ابن المهلب سنة إحدى ومئة الهجرية ( ٣ ) ( ٧١٩ م ) .

— أقول : ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية ( المعقل ) التي هي من ضواحي البصرة حالياً في شمالي البصرة وبالقرب منها ، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون خاصة في الشتاء ، وفيها مناظر خلابة جميلة .

( ١ ) الطبري ( ٥٥٦/٦ - ٥٥٨ ) وابن الأثير ( ٤٨/٥ - ٥٠ ) وانظر كتاب الوزراء والكتاب ( ٣١ ) .

( ٢ ) كانت بين اليزيديين عداوة شخصية قبل ان يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، وقد توعد كل منهما صاحبه ، انظر ابن الأثير ( ٥٧ / ٥ ) .

( ٣ ) انظر التفاصيل في الطبري ( ٥٦٤ / ٦ - ٥٦٥ ) وابن الأثير ( ٥٧ / ٥ - ٥٨ ) وابن خلدون ( ١٦٦ / ٣ ) .

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة وإلى عدي بن أرطاة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرز من يزيد ويعرفهما هربه ، وأمر عدياً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلب ، فأخذهم وحبسهم .

وأقبل يزيد حتى ارتفع إلى ( القُطُقُطَانَة ) ( ١ ) ، وبعث عبد الحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن مساحق العامري القرشي - عامر بن لؤي ، فساروا حتى نزلوا ( العُدَيْب ) ( ٢ ) . ومرّ يزيد قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه . ومضى يزيد نحو ( البصرة ) وقد جمع عدي بن أرطاة أهل البصرة وخذق عليها ، وبعث على خيل البصرة المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل الثقفي .

وبعث عدي على كل خمس من اخماس البصرة رجلاً : خمس الأزد ، وخمس تميم ، وخمس بكر بن وائل ، وخمس عبد القيس ، وعلى خمس العالية من قریش وكنانة والأزد وبجيلة وختعم وقيس عيلان كلها ومزينة ، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه حتى نزل داره . واختلف إلى يزيد الناس ، فأرسل إلى عدي : « أن ابعث إلي إخوتي وإني أصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد ما أحب » ، فلم يقبل منه .

وسار حميد بن عبد الملك بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالد القسري وعمرو بن يزيد الحكمي بأمان يزيد بن المهلب وأهله . وأخذ يزيد بن المهلب يعطي من أتاه قطع الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، وكان عدي لا يعطي إلا درهمين درهمين ويقول : « لا يحلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تبالغوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك » ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

( ٤ ) القُطُقُطَانَة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٢٥ / ٧ )

( ٥ ) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال ، انظر التفاصيل في معجم

البلدان ( ١٣١ / ٦ ) ، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل في

معجم البلدان ( ١٠٦ / ٨ ) .

أُظُنُّ رَجَالَ الدَّرْهَمِينَ تَقْوَدُهُمْ      إِلَى الْمَوْتِ آجَالٌ لَهُمْ وَمَصَّارِعُ  
 وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ قَرَّ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ      وَأَيَقُنُ أَنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ وَقَعُ  
 وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديّ ، فنزلوا ( المرْبَد ) ( ١ ) ،  
 فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له : دارِس : فحمل عليهم ، فهزموهم .  
 وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له ، حتى نزل جبانة بني يَشْكُر  
 وهي النصف فيما بينه وبين قصر الأمانة في البصرة ، فلقية قيس و تميم وأهل الشام  
 واقتتلوا هنيهة ، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا . وتبعهم ابن المهلب حتى  
 دنا من القصر ، فخرج إليهم عديّ بنفسه ، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا  
 فيه خسائر كبيرة .

وجاء يزيد بن المهلب حتى نزل داراً إلى جنب القصر ، وأتى بالسلام وفتح  
 القصر . وأتى بعديّ بن أرتاة فحبسه وقال له : « لو لا حبسك إخوتي لما حبستك » .  
 فلما ظهر يزيد ، هرب رعوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما ، فلحقوا  
 بالكوفة ، وحق بعضهم بالشام . وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العتكيّ نحو  
 الشام ، فلقى خالداً القسريّ وعمرو بن يزيد الحكميّ ومعهما حميد بن عبد  
 الملك بن المهلب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلب وكل شيء أراداه ، فسألاه عن الخبر  
 فخلا بهما سرّاً من حميد وأخبرهما : بأن يزيد بن المهلب قد ظهر على البصرة ،  
 وقتل القتلى ، وحبس عديّاً ، فارجعا ؛ فرجعا وأخذوا حميداً معهما

وأصبح الموقف خطيراً للغاية ، فأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من المال  
 ومنّى أهلها الزيادة ، وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن  
 الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر ،  
 وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق . وقدموا الكوفة ونزلا ( النُخَيْلَة ) ( ٢ )

( ١ ) المرید : مرید البصرة من أشهر محالها ، وكان يكون فيه سوق الإبل قديماً ، ثم صار محلة عظيمة  
 سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، انظر التفصيل في معجم البلدان  
 ( ٨ / ١١ - ١٣ ) .

( ٢ ) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، نظر التفصيل في معجم البلدان ( ٨ / ٢٧٦ -  
 ٢٧٧ ) .

ولما سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك ، فبلغ ابن المهلب ، فخطب الناس يشجعهم ويهون من أمر أهل الشام . وكان الحسن البصري يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً وموالتى عليك ، فما ينبغي لك ذلك ! » ، فوثب أصحابه وأخذوا بضمه وأجلسوه ، وكان النضر ابن أنس ابن مالك يثبّط أهل البصرة كما يثبّطهم الحسن البصري منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن .

وسار يزيد من البصرة ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلب ، وأتى (واسطاً) فلما نزل ( واسطاً ) أقام بها أياماً وخرجت سنة إحدى ومئة الهجرية . (١) ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م) ، فسار يزيد من ( واسط ) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معه بيت المال والأسرى ، وسار على فم ( النيل ) (٢) حتى نزل ( العقر ) (٣) . وقدّم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة ، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك في ( سُورَا ) (٤) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلب ، ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد ، فانكشف جيش ابن المهلب ، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلب . وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات إلى ( الأنبار ) (٥) ، فعقد عليها الجسر وعبر ، ثم سار حتى نزل على ابن المهلب .

وأتى إلى ابن المهلب ناس من أهل ( الكوفة ) كثير ومن الثغور ، فقسّمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم قائداً ، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية الأزدي ومدحج وأسدي وكندي وربيعية وتميم وهمدان ، وجعل أمر كل تلك

- (١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٧٨/٦ - ٥٨٩) وابن الأثير (٧١/٥ - ٧٧) وابن خلدون (٣ / ١٦٦ - ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦) .
- (٢) النيل : بلدة في سواد الكوفة قرب ( حلة ) بني مزيد ، يخرقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٨ / ٣٦٠) .
- (٣) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ١٦٤ - ٦٥) .
- (٤) سورا : موضع أرض بابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٦٨) .
- (٥) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١ / ٣٤٠ - ٣٤٢) وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم .

الأقسام إلى المُفَضَّل ، وأحصى ديوان يزيد بن المهلب مئة ألف وعشرين ألفاً ، فقال : «لَوَدِدْتُ أَنْ لِي بِهِمْ مَنْ بِيخْرَاسَانَ مِنْ قَوْمِي» ، ثم قام في أصحابه وحرّضهم على القتال .

وكان عبدالحميد بن عبدالرحمن قد عسكر بالنَّخَيْلَةَ ، وشق المياها ، وجعل على أهل الكوفة الأرصاء لثلاثا يخرجوا إلى ابن المهلب ، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سَبْرَةَ بن عبدالرحمن بن مِخْنَفٍ ؛ ولكنَّ مسلمة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَةَ بن أبي المُعَيْطِ ، وهوذو الشَّامَةِ . ومن الواضح أن عبد الرحمن لم يكن مسيطراً على الكوفة ، لذلك تسرب أكثر أهلها إلى ابن المهلب ، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلى بمزية المبادرة ، وكان ضعيفاً متردداً ، لذلك عزله مسلمة وولى قائداً متميزاً ، ليضمن قاعدته الأمامية : الكوفة .

وجمع يزيد بن المهلب رؤوس أصحابه فقال : « قد رأيتُ أن أجمع اثني عشر ألفاً ، فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلب حتى يبيتوا مسلمة ، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته ، وأمدّه بالرجال حتى أصبح ، فاذا أصبحتُ نهضتُ إليهم في الناس فأناجزهم ، فأني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » ، فأجابه أحد أصحابه (١) قائلاً : « إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » ، فثنى على قوله آخر (٢) قائلاً : « صدق ! هكذا ينبغي » . فقال يزيد : « ويحكم ! ..... إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه ! إني لقيت بني مروان ، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعده غدرا من هذه الجراداة الصفراء » ، يعني مسلمة ، فقالوا : « لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » .

وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحث الناس على حرب أهل الشَّامِ ، والحسن

(١) اسمه : السمينع

(٢) هو ابو رؤية رأس الطائفة المرجئة ، وبعه أصحاب له .

البصري يثبّطهم ، فهدّد مروان الحسنَ بالعقوبة الصارمة وتوعّده ، فقال الحسن :  
« والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه » (١) ، فقال ناس من أصحابه : « لو أرادك  
ثم شئت لمنعناك » ، فقال لهم : « فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! أمركم ألا  
يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ! » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك ثمانية أيام ، فلما  
كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر ، بعث مسلمة من يحرق الجسر .  
وخرج مسلمة معبئاً (٢) أهل الشام ، ثم قرب من ابن المهلب ، ثم عبأ العباس بن  
الوليد رجاله ، وكان مسلمة على الناس قائداً عاماً . وعبأ يزيد بن المهلب رجاله أيضاً .  
وأحرق الجسر ، فسطع دخانه وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشند  
القتال ، فلما رأى الناس الذين مع ابن المهلب الدخان ، وقيل لهم : أحرق الجسر ،  
انهزموا ! فليل ليزيد : قد انهزم الناس ! فقال : « ممّ انهزموا ؟ ! هل كان قتال  
يُنْهَزَمُ من مثله ؟ ! » ، فليل له أحرق الجسر فلم يثبت أحد ! فقال : « قَبَحَهُمُ اللهُ !  
بَقَّ دُخْنٌ عَلَيْهِ فَطَارَ ! » .

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه في محاولة لردّ المنهزمين من جيشه ، ولكنه  
أخفق في محاولته .

ونزل يزيد يقاتل ، فجاءه من ينعى إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة ، فقال  
يزيد : « لآخر في العيش بعده ، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، وقد  
ازددت لها بغضاً ، امضوا قُدُماً » ، فعلموا أنه قد استقتل ، لذلك تسلل عنه من  
ينكره القتال ، وبقي معه جماعة حسنة ، وهو يتقدم : فكلما مرّ بخيلٍ كشفها ،  
أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه .

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره ، فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب ،  
فعطفت على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد ومحمد بن المهلب .  
وكان المُفَضَّلُ بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة

(١) يريد بعقوبته وتوعده .

(٢) كانت التعبئة حينذاك : ميمته وميسرة وقاباً ومقدمة ومؤخرة .

الناس ، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا . ولكن أصحابه تخلوا عنه هاربين فقيل له : ما تصنع ها هنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل !؟ ولما تفرّق الناس عنه ، مضى إلى ( واسِط ) ، ولم يكن في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه .

وأسرّ مسلمة نحو ثلاث مئة أسير ، فسرّحهم إلى الكوفة ، فحبسوا بها . وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والي الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى ، ثم أقبل مسلمة حتى نزل ( الحَيْرَة ) . ( ١ ) ولما أتت هزيمة يزيد إلى ( واسِط ) ، غادرها آل المهلب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجّوا في البحر ، فلما كانوا بجبال ( كَرْمَان ) ( ٢ ) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب ، وكان المقدّم عليهم المفضّل بن المهلب .

وكان بكرامان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضّل ، فبعث مسلمة قوات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأرواح . ومضى آل المهلب ومنّ معهم إلى ( قَنْدَابَيْل ) ( ٣ ) ، فطاردهم أصحاب مسلمة ، ففرق الناس عن آل المهلب ، ولكن آل المهلب تقدّموا بأسيا فمهم فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم منهم : المفضّل ، وعبد الملك ، وزباد ، ومروان بنو المهلب وثلاثة من أبنائهم ، فبعث مسلمة برءوسهم إلى يزيد بن عبد الملك .

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك خبر مقتل يزيد بن المهلب وكثير من آل المهلب سرّه هذا النصر سروراً عظيماً ( ٤ ) .

( ١ ) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٣٨٦/٢ ) ، والنجف اليوم قريبة من الكوفة ، وفيها مرقد الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

( ٢ ) كرامان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة في ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٢٤١/٧ ) والمسالك والممالك للاصطخري ( ٩٧ - ١٠٠ ) .

( ٣ ) قنْدَابَيْل : مدينة بالسند ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ١٦٧ / ٧ ) .

( ٤ ) انظر التفاصيل في الطبري ( ٥٩٠ - ٦٠٤ ) وابن الأثير ( ٧٧ - ٨٩ ) وابن خلدون -

وهكذا انتصر مسلمة على يزيد بن المهلب وآل بيته ، فخدم الدولة خدمة لا تقدر بقضائه على ثورة يزيد الذي خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هددت كيان الأمويين ومن الأنصاف أن نذكر أن يزيد بن المهلب كان قائداً فذاً وإدارياً حازماً ، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلب ، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه ، أفراده مرتزقة كل همهم كسب المال ، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته ولم يكن يجهد قابلية جيشه المتضعضة ومعنوياتهم المنهارة ، وأردك في أول المعركة بأنه خسرها ، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه ، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام . وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة ، ولكنهم كانوا ملتزمين ، أما جيش يزيد بن المهلب فكان من المرتزقة غير الملتزمين ، لذلك كان جيش مسلمة يتحلى بارادة القتال فانتصر ، وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزية فانهمز .

وقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بن المهلب وبني المهلب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها ، وهي خسارة كبيرة بلامرء ( ١ ) . وأدهي من ذلك وأمر ، أن الاقتتال الذي نشب بين الأخوة أدى الى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في المشرق الإسلامي ، وفي فارس قاعدة الفتح الإسلامي المتقدمة ، مما أدى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم ، فأصبحت طاقاتهم موجهة إلى أنفسهم بدلاً من توجيهها إلى أعدائهم ، فانحسر مد الفتح وتقلص نفوذ الدولة في العراق وفارس وفي السند والأفغان وفيما وراء النهر .

- ( ٣ / ١٦٦ - ١٧٢ ) وانظر المسعودي ( ٣ / ١٩٩ - ٢٠٠ ) وتاريخ الموصل ( ١٠ - ١٦ ) والمعارف ( ٤٠٠ ) .

( ١ ) في العبر ( ١٢٤ / ١ ) : أن يزيد كان ممدحاً كثير الغزو والفتوح ، وانظر أيضاً شذرات الذهب ( ١٢٤ / ١ ) وفي يزيد وآل المهلب يقول الشاعر :

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الاوطان في زمن المحل  
فما زال بي احسانهم واقتنادهم وبرهم حتى حسبتهم أهلي  
انظر مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا ( ١ / ٢٠١ - ٢٠٢ ) ، وفي النجوم الزاهرة ( ١ / ٢٦٩ ) ، قال الفرزدق :

إن المهالبة الكرام تحملوا دفع المكاره عن ذوى المكروه  
زانوا قديهم بحسن حديثهم وكريم أخلاق بحسن وجوه

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيون للقضاء على الأمويين ، وأصبح دعاة بنى العباس يسرحون ويمرحون في بلاد فارس بخاصة بحرّية كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثّر .

لذلك كان انتصار مسلمة في هذا الاقتتال تعبويّاً ، ولكنه كان هزيمة سَوَوقِيَّة ( استراتيجية ) على المدى البعيد .

والانتصار التعبوي لاقيمة له بالنسبة للهزيمة السَوَوقِيَّة كما هو معروف .

ج . ترصين الجبهة الشرقية :

لما فرغ مسلمة بن عبدالمك من حرب يزيد بن المهلب ، جمع له أخوه يزيد ابن عبدالمك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان وذلك سنة اثنتين ومئة الهجرية (١) كان مهمة مسلمة صعبة ، لتناحر القبائل ونشوب العداوة بينها ، وضياح الأمن والاستقرار ، مما أدى إلى تَوقُف الفتح وتهديد مصير الفاتحين في البلاد المفتوحة في بلاد فارس والسند وما وراء النهر .

لذلك عمل مسلمة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم ، لغرض معاونته في ترصين الجبهة الشرقية للدولة ، فأقرّ محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ابن أبي مُعَيْط على الكوفة لأنه سيطر على الكوفة في أيام نشوب القتال بين مسلمة ويزيد بن المهلب سيطرة كاملة ، وأمد مسلمة بالرجال والمواد التموينية ، وحمى خطوط مواصلاته ، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مسلمة المقاتلة .

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلب شبيب بن الحارث التميمي ، فبعث عليها مسلمةُ عبدالرحمن بن سليمان الكلبيّ ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميمي (٢) .

والظاهر أنّ عبدالرحمن بن سليمان الكلبيّ كان والياً ناقماً منتقماً ، لأنه أراد استعراض أهل البصرة فيقتلهم انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلب وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً ، فنهاه عمرو بن يزيد التميمي ، وكتب إلى مسلمة

(١) الطبري ( ٦٠٤/٦ ) وابن الأثير ( ٨٩/٥ ) وانظر المعارف ( ٥٧١ ) وفيه ان مسلمة كان بين أول من جمع له المصران : الكوفة والبصرة وانظر التنبية والاشراف ( ٢٧٧ - ٢٧٨ ) .

(٢) في ابن الأثير ( ٨٩/٥ ) : ورد اسمه عمرو ، وفي الطبري ( ٦٠٤/٦ ) ورد اسمه عمر .

بالخبر ، فعزله وولىّ البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، وأقرّ عمرو بن يزيد التميمي على الشرط والأحداث (١) .

لقد كان مسلمة بعيد النظر حقاً ، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقتها ، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام ، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق ، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملاً جديداً .

واستعمل مسلمة على خراسان سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وهو الذي يقال له : سعيد خذينة (٢) ، وكان سعيد زوج ابنة مسلمة . وقد غزا سعيد الترك وعبر النهر وغزا (الصغد) (٣) ، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة ، ولكن نجاحه كان محدوداً ، لأن كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب (٤) .

ولم يكد مسلمة يمضي بضعة أشهر على العراق وخراسان (٥) ، حتى عزله أخوه يزيد بن عبد الملك سنة اثنتين ومئة الهجرية .

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان ، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبد الملك . واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه ، كما استحيا أن يعزله ، فكتب إليه : « استخلف على عملك وأقبل » .

ولم يلبث مسلمة حتى أتاه عزله بعمر بن هبيرة الفزاري الذي تولى مكانه العراق وخراسان ، فعزل عماله واستعمل الغلظة عليهم ، فقال الفرزدق :

راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة لا هناك المرتع

(١) الطبري (٦٠٤/٦ - ٦٠٥) وابن الأثير (٨٩/٥) .

(٢) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت ، انظر ابن الأثير (٩٠/٥) ، وهو من أبناء عمومة مسلمة يلتقي نسبهما بالحكم والد مروان بن الحكم ، انظر انساب الأشراف (١٦١/١) وفتوح البلدان (٦٠٠) .

(٣) الصفد : كورة عجيبة قصبتها سمرقند ، وقيل هما صفدان : صفد سمرقند و صفد بخارى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٢/٥) .

(٤) الطبري (٦٠٥ - ٦١٥) وابن الأثير (٩٠/٥ - ٩٧) ، وفي انساب الأشراف (١٦٢/٣) ان اهل خراسان شكوا خذينة فعزله .

(٥) المعارف (٣٥٨) ، وفي العيون والحداثق (٧٥) : انه بقي ثمانية اشهر ، وقيل ستة أشهر .

عُزِلَ ابنُ بَشْرٍ وابنُ عمروِ قبله وأخو هَرَاةٍ لمثلها يتوقَّعُ  
 يعنى بابن بشر : عبد الملك بن بَشْرٍ بن مروان بن الحكم ، و بابن عمرو محمد بن  
 عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْطٍ ذا الشَّامة ، وبأخى (هَرَاة) سعيد بن عبدالعزيز  
 بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية (١) ، وهم عمال مسلمة .  
 والذي يبدو أن يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة ، لأنه لا يستطيع السيطرة  
 عليه في تصرفه بالأموال وفي توجيهه سياسة الدولة في تلك البلاد الشاسعة الغنية ،  
 فأراد أن يولّي مَنْ يستطيع السيطرة عليه ويوجّهه كما يريد . (٢)  
 كما أنّ خراج العراق وفارس كان مصدراً غنياً من مصادر تمويل الدولة ،  
 فلا يمكن السكوت عن تصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط .

ولم يكن مسلمة ممن يَضَعُ أموال المسلمين في غير مواضعها ، فمن المحتمل  
 أن يكون الخراج في تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب في العراق وظروف التسبّب  
 في خراسان ، مما أدى إلى ضعفه وقلة موارده ، خاصة وأن جبايته في تلك الظروف  
 مع تغيير الولاية ، من موالين لبني المهلب إلى موالين لبني أمية ، وقتل قسم من أولئك  
 الولاية ، ضيّع المسؤولية وأدى إلى ذهاب الأموال بدداً .

فلما تولّى مسلمة ، كان عليه أن ينفق ما يجابه في التعمير وتأليف القلوب وتقوية  
 جيشه ، لذلك لم يبق في يديه ما يبعث به إلى الخليفة في الشام ، ولو بقي منه شيء  
 لفعل .

لقد استفاد يزيد بن عبد الملك من أخيه مسلمة في أيام الشدة والحرب ، وبعد  
 أن استقرت الأمور أو كادت تخلى عنه في أيام الرخاء والسلم .  
 ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد ، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورة

(١) الطبري (٦١٥/٦) وابن الأثير (٩٧/٥ - ٩٨) ، وفيهما رواية أخرى عن سبب عزل مسلمة  
 عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل ، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر  
 ابن هبيرة العراقيين ، وانظر انساب الاشراف (١٨١/٣) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان  
 ابن الحكم وشعر الفرزدق .

(٢) في العيون والحدائق (٧٥) : قدح فيه عند يزيد ، وقالوا : إنه غير مأمون على الخراج فعزله ...  
 انتهى .

يقصد : قدح في مسلمة عند الخليفة يزيد بن عبد الملك .

يزيد بن المهلب ، وهي ثورة عارمة هدّدت الدولة تهديداً خطيراً جداً ، ولو كان بجعبة يزيد بن عبد الملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمة الصعبة ، لرمى به ابن المهلب دون تردد .

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسدّ ثغرة في قلب الدولة أيام الحرب كما فعل مسلمة ، فبمجرد قدومه على رأس جيشه إلى العراق ، جعل معنويات جيش ابن المهلب تنهار ويتخلّى عنه رجاله ، كما جعل معنويات رجاله ترتفع ، وازداد الاقبال عليه . ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلّوا محلّ مسلمة في أيام السّلام .

إن مسلمة خلق ليكون غازياً ، ولم يخلق ليكون والياً . ويظهر أنّ يزيد بن عبد الملك تخلى عن مسلمة والياً ، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً ، فأستبقاه إلى جانبه في ( دمشق ) يستنصحه ويستشيره في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها ، فكان له نعم الناصح المخلص والمستشار الأمين .

ومما يدل على ثقة يزيد بن عبد الملك بمسلمة ، أنه بايع لهشام بن عبد الملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك باستشارة مسلمة (١) .

وحين عزل يزيد عبدالرحمن بن الضحّاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه ، لم يجد ملجأ يلجأ إليه غير مسلمة الذي أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبد الملك ليغفوعه . (٢)

وكان يزيد بن عبد الملك يحبّ جارية اسمها : ( حبّابة ) ، فلما توفيت وجد عليها وجداً شديداً ، وخرج مشيعاً جنازتها ومعها أخوه مسلمة ليسليه ويعزيه . وقيل إن

يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي ، فأمر مسلمة أن يصلي عليها ، وقيل : منعه مسلمة من الصلاة عليها لثلا يرى الناس منه ما يعيبونه به (٣) ومكث

يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه مسلمة بذلك ، وخاف أن يظهر منه ما يسفههم عندهم (٤) .

(١) ابن الأثير ( ٩١/٥ ) وابن خلدون ( ١٧٤/٣ ) والأغاني ( ٢ / ٧ ) .

(٢) ابن الأثير ( ١١٦/٥ ) وابن خلدون ( ١٨٢/٣ ) ، وقد أجاز أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد ، فقبل شفاعته ، انظر العيون والحداثق ( ٨٥ ) .

(٣) ابن الأثير ( ١٢٠/٥ ) والعيون والحداثق ( ٧٨ ) .

(٤) ابن الأثير ( ١٢١/٥ ) وتاريخ الموصل ( ٢٠ ) .

ولما مات يزيد سنة خمس ومئة الهجرية ، صلى عليه مسلمة (١) ، وهذا يدل  
يدل على أنه كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه الله (٢) .  
لقد استأثر يزيد بمسلمة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة ، ولم يعزله  
عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقع منه شراً ، إذ ليس من شأن مسلمة ولا من سماته  
إشعال نار الفتن وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف وتفريق صفوف المسلمين .

### ٣ - في إرمينية (٢) وأذربيجان (٤)

وفي سنة سبع ومئة الهجرية ( ٧٢٥ م ) ، استعمل هشامُ بن عبد الملك أخاه  
مسلمة على إرمينية وأذربيجان خلفاً للجراح بن عبد الله الحكيمسي ، فاستعمل

- (١) ابن الأثير (١٢٠/٥) .
- (٢) لقد ذكرت هذه الحوادث لافند ما زعمه أحد المؤلفين في كتابه : مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ما  
نصه : «ويبدو ان يزيد بن عبد الملك ، كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً ، إذ وجدناه يعزله عن  
العراقين ومما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه ، أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية  
طيلة خلافته . . . » ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه .
- (٣) إرمينية : بكسر اوله ويفتح ، وسكون ثانيه ، وكسر الميم ، وياء ساكنة ، وكسر النون ، وياء  
خفيفة ، مفتوحة ، اسم صقع عظيم واسع ، وقيل : هما ارمينيتان : الكبرى والصغرى ، وحدهما  
من بردعة الى باب الابواب ( دربند ) من الجهة الاخرى ، الى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب  
السرير . وقيل : ارمينية الكبرى خلاط ونواحيها وارمينية الصغرى تفليس ونواحيها ، انظر  
التفاصيل في معجم البلدان ( ٣٠٣/١ - ٣٠٦ ) والمسالك والممالك للاصطخري ( ١٠٨ ) وتقويم  
البلدان ( ٣٨٧ ) ومختصر كتاب البلدان ( ٢٨٦ - ٣٠١ ) والمسالك والممالك لابن خرداذبه  
( ١٢٢ - ١٢٤ ) وأحسن التقاسيم ( ٣٧٤ ) وكتاب الاقاليم ( ٧٩ ) والبلدان لليعقوبي ( ١٠٦ )  
والاعلاق النفيسة ( ١٠٦ ) . وارمينية اليوم في الجزء المتاخم لأيران - تركيا - الاتحاد السوفياتي ،  
وهي في هذه البلاد جميعاً وأهلها أرمين .
- (٤) أذربيجان : كلمة اذربيجان في الفارسية معناها أرض النار أو معابد النار ، وقد اطلق عليها هذا  
الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. واذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة ،  
والغالب عليها الجبال ، واشهر مدنها تبريز وهي قصبتهما ، وأكبر مدينة فيها أردبيل ، ومن مدنها :  
المراعة وارهية وخوي وسلماس ومرند وموقا . . . الخ . انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ١٥٩/١ )  
- ( ١٦١ ) والمسالك والممالك للاصطخري ( ١٠٨ ) وآثار البلاد وأخبار العباد ( ٢٨٤ ) وأحسن  
التقاسيم ( ٣٧٤ - ٣٧٨ ) وكتاب الاقاليم ( ٧٩ - ٨٥ ) والأعلاق النفيسة ( ١٠٦ ) والبلدان  
لليعقوبي ( ١٠٦ ) والمسالك والممالك لابن خرداذبه ( ١١٨ - ١٢١ ) وتقويم البلدان ( ٣٨٦ -  
٤٠٧ ) ومختصر تاريخ البلدان ( ٢٨٤ - ٢٨٦ ) ، واذربيجان اليوم في ايران والاتحاد  
السوفياتي ، بينهما الحدود التي تفصل بين البلدين ، واحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي هي :  
جمهورية أذربيجان ، وهي القسم الذي ضمن حدوده من هذه البلاد الشاسعة .

مسلمة الحارث بن عمرو الطائي ، فافتتح رستاقاً (١) وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً (٢).

ومن المعروف أن تلك المناطق قد فتحها عتبة بن فرقد السلمي (٣) وبكثير ابن عبد الله الليثي (٤) وسراقة بن عمرو ذو النور (٥) في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيكون دور مسلمة وقائده في هذا المجال هو : القضاء على اضطرابات داخلية ، وتوطيد أركان الأمن ، في منطقة من المناطق المفتوحة .

وفي سنة ثمان ومئة الهجرية ( ٧٢٦ م ) ، غزا مسلمة الروم مما يلي ( الجزيرة ) (٦) ، ففتح ( قيسارية ) (٧) وهي مدينة مشهورة (٨) .

وفي سنة تسع ومئة الهجرية ( ٧٢٧ م ) ، غزا مسلمة الترك (٩) من ناحية

- (١) الرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، وهو اخص من الكورة والاستان ، انظر معجم البلدان ( ٣٧/١ ) ، والكورة : اسم فارسي بحت يقع على قسم من اقسام الاستان ، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان ، فالكورة والاستان واحد . والكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته : كورة دارا بجرد ، ونحو ذلك نهر الملك ، فانه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة عليه نحو ثلاث مئة قرية ، ويقال لذلك جميعه : كورة نهر الملك ، انظر معجم البلدان ( ٣٦/١ ) . وأما الاستان والكورة واحد ، انظر معجم البلدان ( ٣٧/١ ) .
- (٢) ابن الأثير ( ١٣٧/٥ - ١٣٨ ) والعبير ( ١٣٠ ) وشذرات الذهب ( ١٣٤ ) وتاريخ الموصل ( ٢٥ ) وتاريخ ابن خليفة ( ٣٥٠/٢ ) .
- (٣) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة ( ٤١٥ - ٤٢٢ ) .
- (٤) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح فارس ( ٢٠٥ - ٢٠٨ ) .
- (٥) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح فارس ( ٢٠٩ - ٢١٣ ) .
- (٦) الجزيرة : هي جزيرة ابن عمر .
- (٧) قيسارية : مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سيواس في شرقيها وينتقل منها الى قونية ، انظر معجم البلدان ( ١٩٥/٧ ) وتقويم البلدان ( ٣٨٢ - ٣٨٣ ) والمشارك وضعاً والمفترق صدقاً ( ٣٦٤ - ٣٦٥ ) .
- (٨) ابن الأثير ( ١٤٠/٥ ) ، وفي العبير ( ١٣١/١ ) وشذرات الذهب ( ١٣٤/١ ) : أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة الهجرية في رمضان عنوة ، وكذلك في تاريخ الموصل ( ٢٦ ) وانظر النجوم الزاهرة ( ٢٦٢/١ ) .
- (٩) في تاريخ الموصل ( ٢٩ ) : أنه غزا الخزر لا الترك .

( أذْرَبِيْجَان ) ، فغنم وسبى وعاد سالماً (١) .  
وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة وإشاعة الأمن والاستقرار في ( أذْرَبِيْجَان ) الجبلية ذات البرد القارس .  
وفي سنة عشر ومئة الهجرية ( ٧٢٨ م ) ، غزا مسلمة الترك من باب ( اللان ) (٢) ، فلقى ( خاقان ) (٣) في جموعه ، فاقتتلوا قريباً من شهر ، وأصابهم مطر شديد ، فانهزم خاقان ، ورجع مسلمة على مسلك ( ذي القَرْنَيْنِ ) (٤) منتصراً (٥) . وهذه الغزوة تسمى غزوة ( الطَّيْنِ ) ، وكانت ملحمة عظيمة في سابع جُمادى الآخرة من هذه السنة (٦) ، ويبدو انها سميت غزوة ( الطَّيْنِ ) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالاً

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية ( ٧٢٨ م ) استعمل هشام بن عبد الملك ، هشام الجراح بن عبد الله الحَكَمِيَّ على إرمينية وعزل أخاه مسلمة (٧) ، فدخل الجراح بلاد الخزر من ناحية ( تَفْلَيْس ) (٨) ، ففتح مدينتهم (البيضاء) (٩) وانصرف سالماً ، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الاسلام ، وكان ذلك سبب

- (١) ابن الأثير ( ١٤٥/٥ ) وتاريخ الموصل ( ٢٩ ) وتاريخ الاسلام ( ٣٠٢/٤ ) وتاريخ خليفة بن خياط ( ٣٥٢/٢ ) .
- (٢) اللان : بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب ( باب الابواب ) مجاورون للخزر ، انظر معجم البلدان ( ٣١٦/٧ ) وتقويم البلدان ( ٤٠٤ ) .
- (٣) خاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .
- (٤) ذو القرنين : أحد الفاتحين العظام ، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف ، واختلف المؤرخون في اسمه الحقيقي وتاريخ حياته ، وهو الذي بنى سد الصين المشهور ، ويسمى سد يأجوج ومأجوج ، انظر المسالك والممالك لابن خردادبة ( ١٦٢ - ١٦٤ ) .
- (٥) ابن الأثير ( ١٥٥ / ٥ ) .
- (٦) انجم الزاهرة ( ٢٦٧ / ١ ) وتاريخ الاسلام ( ٣٠٢ / ٤ ) .
- (٧) ابن الأثير ( ١٥٨/٥ ) و"انجم الزاهرة ( ٢٧٠/١ ) وابن خلدون ( ٢٩٩/٣ ) وتاريخ الموصل ( ٣٠ ) وتاريخ خليفة بن خياط ( ٣٥٣ / ٢ )
- (٨) تفلّيس : بلد بأرمينية الأولى ، وبعض يقول بأران ، وهي قسبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب ، وهي مدينة قديمة ، انظر معجم البلدان ( ٣٩٦/٢ ) وتقويم البلدان ( ٤٠٢ - ٤٠٣ ) وكتاب صورة الأرض ( ٢٩٢ - ٢٩٤ ) .
- (٩) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٣٣٦/٢ ) والمشارك وضعاً والمفترق صقماً ( ٧٧ - ٧٨ ) .

استشهاد الجراح (١) سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) ، وكان الجراح خيراً فاضلاً من عمال عمر بن عبدالعزيز ، ورثاه كثير من الشعراء (٢) .  
ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مسلمة ، ويبدو أن مسلمة كان في ( دمشق ) سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية ، فلم يغز في تلك السنة ، كما أن الترك سارت إلى (إذربيجان) فلقبهم الحارث بن عمرو فهزمهم (٣) ، مما يدل على أن مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال ، فقاد المعركة قائد من قاداته الذين يعملون بامرته ، وهذا يدل على أن مسلمة كان في ( دمشق ) لأسباب قاهرة ، وقد يكون مريضاً ، لأن هشام بن عبد الملك لا يمكن أن يستغني عن يده اليمنى في تلك المناطق النائية ، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته إلا لأسباب قاهرة .

ولو أن هشام بن عبد الملك عزله لرغبة أو لأنه قصر بواجبه ، لما أعاده إلى منصبه سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) والياً على ( إرمينية ) و ( أذربيجان ) ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاء (الباب) (٤) في آثارهم (٥) وثبت مسلمة لمدينة (الباب) ففتحها ، وكان في قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر ، فحاصروهم ورماهم بالحجارة ، ثم رماهم بقنابل من الحجارة ، ولكنه لم ينتفع بذلك ، فعمد إلى العين التي يجري منها الماء إلى صهريجهم ، فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التي لا ينتفع بها الناس ، فلم يمكث مأوهم إلا ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد ، فلما جنّ عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة . وأسكن مدينة ( الباب ) أربعين ألفاً من أهل الشام على العطاء ، وبني هُرياً للطعام وهُرياً للشعير وخزانة للسلاح ، وأمر بكبس الصهريج ورمّ المدينة (٦) .

- 
- (١) ابن الأثير (١٥٨ / ٥) و النجوم الزاهرة (٢٧٠ / ١) .  
(٢) ابن الأثير (١٥٩ / ٥) وابن خلدون (٢٩٩ / ٣) و النجوم الزاهرة (٢٧١ / ١) و تاريخ الموصل (٢٢) و تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٤ / ٢) .  
(٣) ابن الأثير (١٥٨ / ٥) .  
(٤) الباب : وهي باب الابواب ( در بند ) ، ميناء على بحر الخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩ / ٢) و تقويم البلدان (٤٠٤ - ٤٠٥) .  
(٥) ابن الأثير (١٦٢ / ٥) و تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٧ / ٢) .  
(٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية ( ٧٣٠ م ) ، فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه ، وقتل منهم وأسرى وسبى وأحرق ، ودان له من وراء جبال ( بَلَنْجَر ) ( ١ ) ، وقتل ابن خاقان ( ٢ ) ؛ فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلا الله ، وقد جاوز مسلمة ( بلنجر ) ، فلما بلغه خبرهم ، أمر أصحابه ، فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم ، وعاد وعسكره جريدة ، وقدم الضعفاء وأخبر الشجعان ، وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة ، حتى وصل إلى ( الباب ) في آخر رمق ( ٣ ) ، فأكمل بناء ( الباب ) ( ٤ ) وحصنتها .

وفي سنة اربع عشرة ومئة الهجرية ( ٧٣١ م ) استعمل هشام بن عبد الملك ، مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على ( الجزيرة ) و ( أذربيجان ) و ( إرمينية ) وعزل مسلمة ( ٥ ) ، فأقبل بعدما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبني ( الباب ) ( ٦ ) .  
فما هو سبب عزله ؟

لقد كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم — وهو آخر خلفاء بني أمية — مع عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة إلى ( الباب ) سار مروان إلى هشام بن عبد الملك ، فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدمه ، فقال : « ضيقتُ ذرعاً بما أذكره ، ولم أر من يحمله غيري ! » قال ! « وما هو ؟ » قال مروان : « قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الاسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين ، ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم ، فوالله ما وطئ من بلادهم إلا أدناها ، ثم إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك ، فكتب إلى الخزر يؤذنههم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة

- ( ١ ) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ٢٧٨ / ٢ ) .
- ( ٢ ) في المعارف ( ٣٦٥ ) : أنه قتل خاقان ملك الترك .
- ( ٣ ) ابن الأثير ( ١٧٣ / ٥ - ١٧٤ ) .
- ( ٤ ) المعارف ( ٣٦٥ ) وانظر تاريخ خليفة بن خياط ( ٣٥٩ / ٢ ) .
- ( ٥ ) ابن الأثير ( ١٧٧ / ٥ ) والنجوم الزاهرة ( ٢٧٣ / ١ ) وتاريخ الموصل ( ٣٤ ) والعبر ( ١٤١ / ١ ) وشذرات الذهب ( ١٤٧ / ١ ) وابن خلدون ( ٣٠٠ / ٣ ) .
- ( ٦ ) ابن الأثير ( ١٧٩ / ٥ ) وتاريخ خليفة بن خياط ( ٣٥٩ / ٢ ) .

أشهر فاستعدّ القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قصاراه السّلامة ، وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوة أذهب فيها عنّا العار وأنتقم من العدو . قال هشام : « قد أذنتُ لك » ، قال : « وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل ؟ » ، قال : « قد فعلتُ » ، قال : « وتكتم هذا الأمر عن كل واحد ؟ » قال : « قد فعلتُ ، واستعملتك على إرسيّنة » (١)

وقد خرج مروان مختفياً عن مسلمة إلى هشام (٢) ، أي أنه عاد إلى الشام من الجبهة الأمامية دون إذن مسلمة ودون علمه !!!

وفي رواية أخرى : لما أقبل مسلمة ، زحفت إليه الخزر ، فلم يشعر مسلمة حتى طلّعوا عليه ، فقاتلهم وحال بينهم اللّيل ، وبات المسلمون يحيون ، وانصرف الخزر وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمد ، وذلك كلّ سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٣) والتناقض بين الروایتين واضح ، فان مسلمة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هناك (٤) ، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذآ . كما أن مسلمة تغلغل في بلاد الخزر ، فكيف لم يطأ من بلادهم إلا أدناها ؟ !

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذّنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، حتى استعد الخزر وحشدوا ، فليس ذلك معقولاً ، إذ لا يمكن أن يتصرف أي قائد هذا التصرف ، فينذر عدوّه بالحرب ، ويفسح له المجال للاستعداد ، ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر !!

أما أن مسلمة لم تكن له نكاية بالخزر ، فهذا ما يدحضه سير القتال ، وما أنجزه مسلمة في الحرب .

يبقى ماورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مسلمة إلى هشام بن عبد الملك ، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مسلمة ، لاستأذنه في القفول إلى دمشق لسبب

(١) ابن الأثير (١٧٧/٥) ، وابن خلدون (١٩٧/٣)

(٢) ابن خلدون (١٩٧/٣) .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

(٤) ابن الأثير (١٧٩/٥) .

من الأسباب ثم يعود أدراجه إلى دمشق ، إذ ليس من المعقول أن يعود من ( الباب ) إلى دمشق ، وهو قريب القريبى من مسلمة ، فيبقى أمر عودته سرّاً مكتوماً على مسلمة ولا يعرف مسلمة عن رحيله شيئاً !!

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة ، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى ، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمسلمة ، وتجعل من الصعب على هشام أن يصدّق وشاية مروان ، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل .

كل ذلك يجعلنا نعتد الرواية الثانية ، وهي أنّ مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام ، قفل راجعاً إلى دمشق ، واستخلف مروان على ولايته .  
ويبدو أنّ مسلمة بعد عودته ، اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه ، فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة .

ولم يكن هشام يعزل مسلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة الأموية ، وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته ، لأن كفايته فوق الشبهات ، ولأن هشام بن عبد الملك ولاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .  
ومما يلفت النظر أنّ مسلمة لم يُغزّر ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، حتى توفاه الله سنة عشرين ومئة الهجرية أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية .

وغيابه عن تحمل أعباء الجهاد ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الفرض - ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفداد .

وإذا كان بالامكان أن يتخلى عن تولي المناصب الادارية ، فليس بالامكان أن يتخلى عن تولي المناصب القيادية ، وهو الذي حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره وقضى كل سني حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته .

والذي يبدو أن تخليه عن القيادة مكرهاً، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض،  
ومن المعروف أن من مزايا القائد المتميز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة ، ليستطيع  
تحمل مشاق التنقل وأعباء الجهاد ، وإلا فليس هناك ما يسوغ ابتعاده عن ساحات  
الوضى غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش .  
وعلى كل حال ، فقد أدى ما عليه من واجبات قيادية وإدارية بما فيه الكفاية،  
وخدم الدولة في ميداني القيادة والادارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة .



يتبع

محمود شيت خطاب